من أسباب صلاح القلوب: (3) الموعظة الحسنة





حسان أحمد العماري

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 4/4/2025 ميلادي - 6/10/1446 هجري

الزيارات: 6004

من أسباب صلاح القلوب:

(3) الموعظـــــة الحسنة

الحمد لله الداعي إلى بابه، الموفِّق من شاء لصوابه، الحافظ من توكل عليه ولاذ بجنابه، أحمده على الهدى وتيسير أسبابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجو بها النجاة من عقابه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أكملَ الناس عملًا في ذهابه وإيابه، ألَا يا مُحبَّ المصطفى زِدْ صبابةً = وضمخ لسان الذكر منك بطِيبه... ولا تعبأنَّ بالمبطلين فإنما = علامة حبِّ الله حبُّ حبيبه... صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر أفضل أصحابه، وعلى عمر الذي أعز الله به الدين واستقامت الدنيا به، وعلى عثمان شهيد داره ومحرابه، وعلى عليٍّ المشهور بحل المشكل من العلوم وكشف نقابه، وعلى آله وأصحابه ومن كان أولى به، وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعـــــد أيها المؤمنون:

فإن الإسلام دين يخاطب العقل والوجدان، ولا يُهمل شيئًا من الجوانب الإنسانية على حساب جوانب أخرى، ولكلٍّ من العقل والوجدان أساليب تناسبه وتنفذ إليه؛ فالدليل والبرهان والمقارنة أساليب تخاطب العقل؛ بقصد تأهيله إلى إدراك المعارف الموصِّلة إلى الله؛ فيقول الله سبحانه وتعالى في خطاب للعقل: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 78، 79]، وجعل التأمل والنظر وإثارة الشعور أساليب لمخاطبة الوجدان؛ لكي تسمو الروح، وتكتسب القدرة على التذوق الرفيع الذي يوصلها إلى حب الله والاستقامة على شرعه؛ يقول الله سبحانه وتعالى في خطاب الوجدان: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: 62، 63]، فكان من أساليب إثارة الشعور والوجدان لإصلاح القلوب، المواعظُ والتذكير، والموعظة هي النصح والتذكير بالعواقب، وهي تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب.

عباد الله: إن المواعظ سِياط القلوب، تؤثر في الإنسان كتأثير السياط في الأبدان؛ وفي ذلك يقول ابن رجب رحمه الله: "إن المواعظ سياط تُضرب بها القلوب، فتؤثر فيها كتأثير السياط في البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده"، كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر، خرجوا وعليهم السَّكينة والوقار حتى كأنهم ينسَون دنياهم التي اعتادوا عليها، وكأنهم صاروا في فلك آخر، لا تطأ أرجُلهم الأرض التي تُقلهم، ولا تؤويهم المنازل التي تظلهم، ومما يدل على عِظم شأن الموعظة الحسنة أن الله تبارك وتعالى سمى القرآن الكريم موعظة؛ فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: 34]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 57]، وقال سبحانه: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 138]، وقال جل جلاله: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ [البقرة: 231]، وجعل الله القرآن موعظةً للمؤمنين بالله واليوم الآخر؛ فقال سبحانه: ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: 232]، والكافرون هم الذين لا تؤثر فيهم الموعظة؛ فقال سبحانه يحكي مقالة عاد قوم هود لنبيهم: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ [الشعراء: 136]، ومما يدل على عِظم شأن الموعظة، أن الاستجابة للموعظة خير كبير، وقبولها منجاة من عذاب الله؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [النساء: 66]، وقال في آيات تحريم الربا: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 275]، وقوله: ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾؛ أي: لا يُسترد منه ما أخذه من الربا قبل نزول التحريم، وجاء في كتاب الله أن الذكرى تنفع المؤمنين الذين يخشَون ربهم؛ فقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 55]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: 45]، وقال سبحانه: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ [الأعلى: 10]، والتذكير يكاد يكون مرادفًا للموعظة.

معاشر المسلمين: إن مواعظ القرآن أعظم ما يُحيي القلوب، فأعطِني السمع والقلب، والجوارح والأركان؛ حتى نمر بموعظة قرآنية؛ قال الله جل في علاه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 5، 6]، تُرى ما الذي غرهم من الدنيا وهذه سهامها تُصيب كل يوم أحدهم بسهم، فتُرديه هالكًا، وتسلمه إلى القبر المظلم المطبق عليه، سالكًا سبيل من سبقوه من الأموات الهالكين، وقد خرقت القبور منهم الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصت الدم، وأكلت اللحم؟ تُرى ما صنعت بهم الديدان؟ أليست قد محت الألوان، وعفَّرت الوجوه الحِسان، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء؟! أليس الليل والنهار عليهم سواء؟! أليسوا في مُدلهمة ظلماء؟! قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السعة إلى المضايق، إن المنادي كل يوم ينادي: يا ساكن القبر غدًا، ما الذي غرك من الدنيا؟! أين دارك الفيحاء؟ أين رقاق ثيابك؟ ليت شعري! كيف ستصبر على خشونة الثرى؟ وبأي خديك يبدأ البِلى؟ والموت فاذكره وما وراءه؛ فما لأحد عنه براءة، وإنه للفيصل الذي به يعرف ما للعبد عند ربه، والقبر روضة من الجنان، أو حفرة من حفر النيران، إن يكُ خيرًا، فالذي من بعده أفضل عند ربنا لعبده، أو يكُ شرًّا، فالذي بعد أشد، ويلٌ لعبد عن سبيل الله صدَّ، إنها المواعظ القرآنية التي تحيي القلوب؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 57]، نعم، مواعظ القرآن هي علاج قسوة القلب، وصلاح لفسادها، فإذا غفل القلب، فلا يحيا إلا بمواعظ القرآن، وليس أحسن للقلب من مداومة ذكر الله، بشرط أن يتواطأ القلب واللسان، ولا أحسن من سماع المواعظ والتدبر والعمل بما تسمع، وحتى تنتفع بالمواعظ لا بد من العمل؛ قالسبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: 66 - 68]، ففي الاتباع هدًى وثبات واستقامة وحياة لأولي الألباب.

أيها المؤمنون: لقد كان صلى الله عليه وسلم يحيي النفوس، ويصلح فساد القلوب بالمواعظ، وجعل الموعظة وسيلة من وسائل تزكيتها؛ عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: ((وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهَد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشيٌّ؛ فإنه من يعِش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومُحدثاتِ الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم، فعليه بسُنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ))؛ [رواه الترمذي (2676)، وابن ماجه (42)]، نعم، ذرفت العيون ووجلت القلوب، وهذا ما نحتاجه لنُصلح فساد قلوبنا، وحتى نتأسى بالصالحين من قبلنا، إن المواعظ التي ترقِّق القلوب وتجلي همَّ الصدور، لها منازل عليا في تاريخنا البعيد والقريب، قد ضمنتها نفائس الأسفار التي خاطبت الأمة، وبلغت أنوارها الدَّهماء والعامة، وقد حُفظت هذه النفائس لتكون للناس الزاد ليوم المعاد.

خرج هارون الرشيد يومًا في رحلة صيد فمرَّ برجل يُقال له: بهلول، قد اعتزل الناس وعاش وحيدًا، فقال هارون: عِظني يا بهلول، قال: يا أمير المؤمنين، أين آباؤك وأجدادك، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيك؟ قال هارون: ماتوا، قال: فأين قصورهم؟ قال: تلك قصورهم، قال: وأين قبورهم؟ قال: هذه قبورهم، فقال بهلول: تلك قصورهم، وهذه قبورهم، فما نفعتهم قصورهم في قبورهم، قال: صدقت، زِدني يا بهلول، قال: أما قصورك في الدنيا فواسعة، فليت قبرك بعد الموت يتسع، فبكى هارون، وقال: زدني، فقال: يا أمير المؤمنين، قد ولَّاك الله فلا يرى منك تقصيرًا ولا تفريطًا، فزاد بكاؤه، وقال: زدني يا بهلول، فقال: يا أمير المؤمنين، هَبْ أنك ملكت كنوز كسرى، وعمرت السنين، فكان ماذا؟ أليس القبر غاية كل حي، وتُسأل بعده عن كل هذا؟ قال: بلى، ثم رجع هارون ولم يكمل رحلة الصيد تلك، وانطرح على فراشه مريضًا، ولم تمضِ عليه أيام حتى نزل به الموت.

عباد الله: والناس بعد سماع المواعظ ينقسمون إلى عدة أقسام؛ قال ابن رجب: فمنهم من يرجع إلى هواه، فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر، ولا يزداد هُدًى، ولا يرتدع عن رديء، وهؤلاء شر الأقسام، ويكون ما سمِعوه حُجة عليهم، فتزداد به عقوبتهم، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [النحل: 108]، ومنهم من ينتفع بما سمعه؛ وهم على أقسام؛ فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات، ويُوجِب له التزام الواجبات؛ وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين، ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات، والتورع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات؛ وهؤلاء السابقون المقربون.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، والصلاة والسلام على رسوله الداعي إلى رضوانه، وعلى آله وأصحابه وإخوانه؛ أما بعد أيها الناس:

فالموعظة مطلوبة من كل مسلم، حسب علمه وقدرته، وبآدابها وشروطها، فنحتاج للموعظة في البيوت مع الأهل والأولاد، ونحتاجها مع الزملاء والأصدقاء، ونحتاجها في المجالس والمنتديات، ونحتاجها في مساجدنا ومدارسنا، ونحتاجها في التناصح والتذكير متى ما دعت إليها الحاجة، وعلى الإنسان كلما شعر بقسوة قلبه أن يبحث له عن واعظ يذهب إليه ليُذكِّره ويعظه، كما يذهب إلى الطبيب الماهر ليعالجه من

أمراض الجسد، فالمواعظ ترياق الذنوب، فلا ينبغي أن يسقي الترياق إلا طبيب حاذق معافًى، فأما لديغ الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه لغيره:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى　　طبيب يداوى الناس وهو سقيم

يا أيها الرجل المقوم غيره　　هلا لنفسك كان ذا التقويم

فابدأ بنفسك فانْهَها عن غيها　　فإن انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُقبل ما تقول ويُقتدى　　بالقول منك وينفع التعليم

لا تنهَ عن خلق وتأتيَ مثله　　عار عليك إذا فعلت عظيم

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، هذا وصلوا وسلموا على أُمرتم بالصلاة والسلام عليه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 56].
